﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: 94]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تـثـبـيـت مـن الْـتَـبَـسَ عليه الـحـالُ بـيـنَ أمـرَي الإقـدامِ وَالإحجامِ

لَمَّا كانَ اللهُ تعالى قدْ أَمَرَ بالجهادِ في سَبيلِه، وأكَّدَهُ بأَنواعِ المؤكِّداتِ، وَبيَّنَ قبلَ هذهِ الآيةِ المنعَ الشَّديدَ مِنْ قتلِ العمدِ، وما في قتل الخطأ من المؤاخذة الموجبة للتّثبُّت، والمنع الشَّديد من قتل العَمْد؛ كانَ رُبَّما الْتَبَسَ الحالُ بينَ أمرَي الإقدامِ وَالإحجامِ، فجاءتْ هذهِ الآيةُ بالأمرِ بالتَّثَبُّتِ[1]، تحقيقًا لصيانة الدَّم، وتحرُّزًا من القتل بوصفيه الخطأ والعمد، في أكثر المواطن استدعاءً له، والتباسًا على ملابسيه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: فعله المجرَّد عن الضَّمير: ضرب، وهو إيقاعُ شيءٍ على شَيءٍ، والضَّرْبُ في الأَرْضِ: الذّهاب والسَّفرُ فيها لابتغاءِ الخيرِ والرّزقِ، فيكونُ الضَّربُ في الأرضِ استعارةً، أو مِنْ بابِ ضَرْبِ الأرضِ بالأرجلِ[2]، وضربتمْ بمعنى: سافَرتُم، أو جاهدتُم، والمراد في الآية الثَّاني بقرينة قوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: أصلُ الكلمةِ: بَيَنَ، وبَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ؛ إذَا اتَّضَحَ، وَانْكَشَفَ، وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، والبَيانُ: مَا بُيِّنَ بِهِ الشَّيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها[3]، وتبيّن الشَّيء: توضَّح، وصار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/366.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (ضرب)
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل.

ظاهرًا، بحيث لا ينازع فيه منازع لوضوحه[1]، و﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: فاطلبوا بيانَ الأمرِ وانكشافه،[2] وتستوضحوا جليَّته وعلى قراءةِ (فتثبَّتوا)؛ فالمعنى: فتأنَّوا، وتوقَّفُوا حَتَّى تَتَيقَّنوا صِحَّةَ الخَبَرِ[3].

3) ﴿عَرَضَ﴾: العَرَضُ ضدُّ الجَوهرِ، وهو ما لا يكونُ له ثباتٌ ولا استقرارٌ، وقولُهم: الدُّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ، أي: لا ثباتَ لَها، وكلُّ ما هو مِنْ طَمعِ الدُّنيا عرَضٌ قَليلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا؛ لزواله، ومنه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: 152]، وقد قال ابن مسعود ﷺ: (فلوْ حلفت يومئذٍ؛ رجوت أن أبرَّ: إنَّه ليس أحد منَّا يريد الدُّنيا، حتَّى أنزل الله ﷻ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ الحديث: أخرجه الإمام أحمد[4] وذكره ابن كثير عند تفسير الآية، وهو نصٌّ فيما ذهبنا إليه لا يُعْدل به، ولا يُعدل عنه[5].

4) ﴿مَغَانِمُ﴾: جمعُ مَغْنَم مِنَ الغُنْمِ، وهو الظَّفرُ بالشَّيء، والفَوزُ به من غيرِ مشقَّةٍ، والاغتنامُ: انتهازُ الغُنْمِ، يُقَالُ: اغتنَمَ الفُرصةَ، وانتهزَها، بِمَعْنًى وَاحِدٍ، والغنيمةُ: المالُ الَّذي يُظفَرُ في الحربِ وغيرِها[6]، و﴿مَغَانِمُ﴾ في الآيةِ بمعنى: رزقِ اللهِ وفواضلِ نِعَمِهِ[7].

5) ﴿فَمَنَّ﴾: الفعل منَّ يمنُّ (مَنًّا)، والاسْمُ: المِنَّةُ، ويقال أيضًا: امْتَنَّ عَلَيْهِ، بمعنى: أَحسنَ، وأَنعمَ، وصنعَ صُنعًا جميلًا، ولا يكونُ الإحسانُ بالأفعالِ منّةً إلَّا إذا كانت ثقيلةً، يقال: مَنَّ عليه؛ إذا أثقلَه بالنِّعمةِ، وَمَنَنْت عَلَيْهِ مَنًّا بمعنى: عَدَدْت لَهُ مَا فَعَلْت لَهُ مِنْ صنَائِعِ المعروفِ والإحسانِ، والمَنُّ مِنَ اللهِ ممدوحٌ، ومِنَ النَّاسِ مذمومٌ؛ لِأَنَّهُ تَعييرٌ وتكديرٌ، فالنِّعَمُ كلُّها على الحقيقةِ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللهِ تعالى[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (بَيَنَ).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/114.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات: 1/209.
(4) حديث رقم: 4414.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عَرَضَ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (غنم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 9/71.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منن)، والطيبي، فتوح الغيب: 14/519.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُبَالَغَةُ فِي تَحْرِيمِ قَتْلِ المُؤْمِنِينَ وَأَمْرُ المُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ

المَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ المُبَالَغَةُ في تَحْرِيمِ قَتْلِ المُؤْمِنِينَ، وَأَمْرُ المُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ؛ لِئَلَّا يَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا بِتَأْوِيلٍ ضَعِيفٍ، وفيها ينادي اللهُ تعالى - نداءَ تحبُّبٍ وتقرُّبٍ - الَّذين صدَّقوا اللهَ ورسولَه وعملُوا بشرعِهِ: إذا خرجتُمْ في الأرضِ مجاهدينَ في سبيلِ اللهِ؛ فكونوا على بيِّنَةٍ ممَّا تأتونَ، وتتركونَ، ولا تعجَلُوا، ولا تَنْفُوا الإيمانَ عنْ مَنْ استسْلَمَ لكمْ، فلمْ يقاتلْكُمْ، مظهرًا لَكمْ شيئًا مِنْ علاماتِ الإسلامِ؛ لاحتمالِ أنْ يكونَ مؤمنًا يُخفِي إيمانَهُ، فتقتلوهُ، طالبينَ بذلكَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، واللهُ تعالى عندَهُ مِنَ الرِّزقِ وفواضلِ نعمِهِ ما يُغنيكُمْ بِهِ، كما استخفى هذا - الَّذي قتلتموهُ، وأخذتُمْ مالَهُ بدينِه - مِنْ قومِه أنْ يُظهرَه لَهم؛ حذرًا على نفسِهِ منهم، كذلكَ كنتُمْ في بدءِ الإسلامِ تُخفونَ إيمانَكمْ عن قومِكمْ مِنَ المشركينَ، فَمَنَّ اللهُ عليكُم، وأعزَّكمْ بالإيمانِ والقوَّةِ، فكونوا على بيِّنةٍ ومعرفةٍ في أمورِكمْ، إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ أعمالِكمْ، مطَّلعٌ على دقائقِ أمورِكمْ، وسيجازيكُمْ عليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

التَّبيُّن والتَّثبُّت من مقتضيات الإيمان

النِّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المؤمنينَ إلى اللهِ، ففيهِ تقريبٌ وتودُّدٌ، وجاءَ بالاسمِ الموصولِ دونَ أنْ يقولَ: (يا أيُّها المؤمنون)؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ وصفَ الإيمانِ قد حصلَ الاتِّصافُ بِهِ منذُ الزَّمنِ الماضي، فيكونُ الطَّلبُ الَّذي يحصلُ بعدَ النِّداءِ أدعى إلى الامتثالِ؛ لِبنائِهِ على الإيمانِ الحاصلِ، ويُشعِرُ البناءُ على وصفِ الإيمانِ أنَّ التَّبيُّنَ المذكورَ مِنْ مقتضياتِ الإيمان.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/70، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/191، ولجنة من علماء التفسير، التفسير الميسر/93.

شهادةُ الإسلام، وتحيَّتُه تَكفيان في منعِ القتلِ في الحربِ

ويُشعِرُ النِّداءُ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَظْهَرَ قولًا أو فعلًا دالًّا على الْإِسْلَامِ - وإن كانَ المُظْهَرُ سمةً قليلةً - مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ قَصْدُ القَاتِلِ الحِرْصَ عَلَى تَحَقُّقِ أَنَّ وَصْفَ الإيمَانِ ثَابِتٌ لمن أراد قتله، فَإِنَّ هَذَا التَّحَقُّقَ غَيْرُ مُرَادٍ لِلشَّرِيعَةِ، وَقَدْ نَاطَتْ صِفَةَ الإِسْلَامِ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فيُكتفى بهذا في منع القتل[1]، بالكفِّ عن معالجته، فذلكم التَّثبُّت بسبيل التَّبيُّن.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وجه الكناية الإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ في الغزو

الضَّرْبُ في سبيل الله مَعْنَاهُ: السَّيْرُ في الأرضِ بالسَّفَرِ لِلْجِهَادِ والغزو، فإنَّ قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تركيبٌ: إذا اقترنَ بالضَّربِ؛ قُصِدَ به الغزوُ والجهادُ قطعًا[2]، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ في الغزو، فَإِنَّ مَنْ ضَرَبَ إِنْسَانًا كَانَتْ حَرَكَةُ يَدِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الضَّرْبِ سَرِيعَةً، فَجُعِلَ الضَّرْبُ كِنَايَةً عَنِ الإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ[3].

دلالةُ الحالِ بينَ التَّقييدِ وبيانِ الغالبِ:

وجوب التَّبيُّن والتَّثبُّت على جهة المبالغة؛ حقنًا للدِّماء واحتياطًا لمن أظهر شيئًا من الإسلام اتِّقاءً واحتماءً

جاء قولُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حالًا من ضمير ﴿ضَرَبْتُمْ﴾، ولا يُقصدُ بالحالِ هنا تقييدُ الضَّرب، فيكونُ الأمرُ بالتَّبيُّن والتَّثبُّت مخصوصًا بحالِ الحربِ، بل ذُكِرَتِ الحالُ لبيانِ الغالبِ، فإنَّه لَمَّا كَانَ خَفَاءُ هذه الأمور مَنُوطًا بِالْأَسْفَارِ وَالغزوات؛ قَالَ: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وَإِلَّا؛ فَالتَّثَبُّتُ وَالتَّبَيُّنُ لَازِمٌ فِي قَتْلِ مَنْ تَظَاهَرَ بِالْإِسْلَامِ فِي السَّفَرِ وَفِي الْحَضَرِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ عنِ التَّبيُّنِ بصيغةِ (التَّفعُّل):

تدلُّ الصِّيغةُ على معنى الطَّلبِ، فإنّ (تفعَّلَ) هنا بمعنى: استفعل،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/11.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.

والمعنى: اطلبوا بيانَ الأمرِ وثباته، ولا تتعجَّلوا فيه عن غيرِ رويَّةٍ[1]، وإنَّما جاء الطَّلبُ بصيغةِ (تفعّل)؛ لإفادةِ التَّكثيرِ والتَّقَوِّي، أي: شِدَّة طَلَبِ الْبَيَانِ والتَّأَمُّلِ الْقَوِيِّ[2]، بمعنى: تكثيرِ طلبِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ، أي: إنَّه، وإنْ عُلِمَ كفرُه، أو أنَّهُ من المحاربين، وغلبَت صحَّتُهُ على الظَّنِّ؛ فلابدَّ مِنْ أنْ يُعادَ النَّظرُ فيه قبلَ الإقدامِ، فهذا هو معنى تكثيرِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ.

وجوب المبالغةِ في التَّبيُّن والتَّثبُّتِ حفظًا لِلدِّماءِ

والمراد منه أيضًا بذلُ الوِسْع، وإن كان فيه شيءٌ من مغالبة النَّفس وقهرها حملًا لها على الإمساك عن رَهَقِ السَّيف، فذلك أحمدُ عاقبةً من إزهاق النَّفس المظنون عصمتها وخلوُّ ساحتها عن موجب الإزهاق.

توجيه القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾:

التَّثَبُّتُ سَبَبٌ للتَّبيُّن وقَلَّمَا يَكُونُ تبيُّنٌ إلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف بن هشام البزَّار: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بالثَّاء المثلَّثة قبلها تاء، والكلمة من التَّثبُّت: وهو التَّوقُّف والتَّطلُّع والنَّظر الفاحص المدقِّق، وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم كلُّهم: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ من التَّبيُّن: وهو التَّعرُّف والاطِّلاع والاهتداء إلى البيِّنة[3]، ويمكنُ إيجازُ الفرقِ الدَّلاليِّ بينَ القراءتين بما يأتي:

ذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ القراءتين بمعنًى واحدٍ، أو أنَّ المعنيين متقاربان، فيقالُ للرَّجلِ: لا تعجلْ بإقامةٍ حتَّى تَتَبيَّنَ، وحتَّى تَتَثَبَّتَ؛ لِأَنَّ تَبَيُّنَ الرَّجُلِ لَا يَقْتَضِي أَنَّ الشَّيْءَ بَانَ، بَلْ يَقْتَضِي مُحَاوَلَةً لِلتَّبَيُّنِ، كَمَا أَنَّ (تَثَبَّت) يَقْتَضِي مُحَاوَلَةً لِلتَّثَبُّت، فَهُمَا سَوَاءٌ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/218.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 236.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189.

وذهبَ النَّحَّاسُ والرَّاغبُ الأصفهانيُّ وغيرُهما[1] إلى أنّ قراءةَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أبلغ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ التَّثبُّتَ إنَّما هو لأجل التَّبيُّن، وَالتَّثَبُّتُ إنَّمَا هُوَ سَبَبٌ لَهُ، فقلَّمَا يَكُونُ التَّبيُّنُ إِلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ، وقد يكونُ التَّثَبُّتُ، ولا يكونُ التَّبَيُّنُ، فقد يحصلُ السَّببُ، ولا يحصلُ المسبَّبُ.

ويمكنُ الجمعُ بينَ القراءتينِ بطريقتين:

الأولى: بالنَّظرِ إلى مآلِ المعنيينِ والمقصود منهما، فإنَّ مآلَ المعنيين: هو النَّهيُ عن التَّعجُّلِ بأنْ يكونَ حكمُ المؤمنينَ سليمًا لا خطأَ فيه، فإنَّ طلبَ الشَّيءِ يستلزمُ النَّهيَ عن ضدِّه عُرفًا، ولمّا كانَ مآلُ المعنيين واحدًا؛ فلا تباينَ في القراءتين، ولا تخالُفَ في المعنى، فقدْ كانَ جمهور المفسِّرين يُتبعونَ معنى ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أو ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بقولهم: (فَلا تتعجَّلوا)[2]، فَمَنْ قرأَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾؛ فعلى معنى بيانِ الأمورِ واستيضاحِها والتَّأنِّي فيها، ومآله إلى النَّهي عنِ التَّعجُّلِ، ومَنْ قرأَ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾؛ فعلى معنى طلبِ التَّثبُّتِ الَّذي هو خِلَافُ الْإِقْدَامِ، بحيثُ لا يتبدَّلُ الحكمُ، ولا يحتملُ نقيضَ ما بَدَا للمؤمنينَ، ومآلُه إلى النَّهي عن التعجُّلِ كذلك، وجاءَ بصيغةِ الإيجابِ دونَ السّلبِ؛ لمناسبةِ المقامِ الَّذي يقتضي تقريرَ البيانِ والتَّثبُّتِ مِنَ الحُكمِ لا نفي ضدِّه فحسبُ، وذلك أنّ التَّبَيُّن: هو التّمييز، والتَّثبُّتَ: هو التَّوقُّف.

والأخرى: بالنَّظرِ إلى مراعاةِ المعنى ومراعاةِ اللَّفظِ، مِنْ غيرِ ترجيحٍ لإحداهما على الأخرى في الأبلغيَّةِ، فكلتاهما في أعلى سُدَّة البلاغة في هذا المقام، فيقالُ: إنَّ قراءةَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أبلغُ مِنْ حيثُ المعنى؛ فإنَّ المقصودَ هو الاتِّضاحُ والانكشافُ بحيثُ لا ينازِعُ فيه منازِعٌ لوضوحِه، وقراءةُ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ أبلغُ مِنْ حيثُ السِّياقُ واللَّفظُ؛ لأنَّ التَّثبُّتَ يناسبُ مقامَ الضَّربِ في سبيلِ اللهِ، وما يدلُّ عليه الضَّربُ مِن معنى الإسراعِ فيه، وأشعرَ بقريبٍ من هذا المعنى ما نقلَه أبو حيَّانٍ عن أبي عليٍّ الفارسيِّ حينَ رأى أنَّ التَّثَبُّتَ أَشَدُّ اخْتِصَاصًا بِهَذَا الْمَوْضِعِ[3].

ورودُ النَّهي بعدَ الأَمرِ:

وردَ قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ بعد قوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ لاختلافِ الطَّلبين، فالأمرُ بالتَّثبُّتِ يكونُ

(1) النحاس، إعراب القرآن: 1/233، والجصاص، أحكام القرآن: 3/226.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/31، والجصاص، أحكام القرآن: 3/226.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.

بالنَّظر العقليِّ، وبالفعل عن طريق التَّحرِّي، والنَّهي ورد عن القول؛ ليشمل مجيءُ الطَّلب بالأمر والنَّهي كلَّ أنواع التَّحرُّز والتَّحفُّظ عن قتل المؤمن خطأً أو عمدًا، كما يشعرُ النَّهيُ عن تركِ التَّبيُّنِ بعدَ الأمرِ به بالتَّأكيدِ والتَّشديدِ[1].

شمولُ الطَّلَبِ كلَّ أنواعِ التحرِّزِ عن الخطأِ

بلاغة التَّعبير عن السَّلام بالإلقاء:

من جماليَّات التَّعبير في الآية قوله: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ﴾؛ إذ فيه إشعارٌ بالاعتناء برفع قيمة كلِّ ما يصدر من ذي حال؛ طلبًا لحقن دمه وسلامة روحه، وإعلاء للسِّلم وإغلاء للحياة، وأنَّ الأسلوب النَّاهي في الآية ما هو إلَّا انبراء للدِّفاع عنه، مُتَبَنٍّ حجَّته، مُقَوٍّ ضعْفه، هكذا يفعل القرآن العظيم، وهو يدلي بهذه المرافعة الآسرة والمدافعة الباهرة، والمحاججة الآمرة في وجه تابعيه في أقوم بيان وأخلده، يقوِّي وهن العائذ اللَّائذ المتّقي القتل بما ينبسُّ به، ولا يُحسن غيره، ويرفع خسيسته، ويُعلِي صوته، وَيُبْلِغ حجَّته، ويكفُّ عنه أعوانه وناصريه من الأتباع، فيا له من دين عظيم، ذي خير عميم، وهَدْي كريم، ونظرٍ قويم، وقلب سليم!

في الإلقاء إشعارٌ بالاعتناء، وطلبٌ لحقن الدَّم، وسلامة الرُّوح

توجيه القراءات القرآنيَّة في لفظي: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، و﴿مُؤْمِنًا﴾:

قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، وحمزة وخلف: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بغير ألف، على معنى: (الوفاض والاستسلام والإعطاء باليد) على حين قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم والكسائيُّ بألف بعد اللَّام هكذا: ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾[2] على معنى: التَّحيَّة، ولكلٍّ من القراءتين ما يتعلَّق به الحكم من أثرٍ في المعنى بديع رفيع نعرض له فيما يأتي:

فالسَّلام يجوز أنْ يكونَ بمعنى: التَّسليم من قولِهم: (السَّلام عليكم)، أو ما هو بِمعناه؛ لِأنَّ التَّسليمَ من علاماتِ الإسلامِ، كما

(1) القونوي، حاشية القونوي على أنوار التنزيل: 7/267.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/251.

أَنَّهُ تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةُ الْأَمْنِ وَالاسْتِئْمَانِ؛ لِيكونَ النَّهيُ عن إِنْكَارِ إِسْلَامِ مَنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، وَلَوْ بِإِلْقَاءِ تَحِيَّتِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ؟ كما أَنَّ إِلْقَاءَ السَّلَامِ قَدْ يَكُونُ إِلْقَاءً لِلسِّلْمِ وَإِيذَانًا بِعَدَمِ الْحَرْبِ[1].

إلقاء السّلام قد يكون جنوحًا للسِّلم وقبولًا للسِّلْم وإيذانًا بعَدَم الحرب

ويجوز أنْ يكونَ بمعنى: الاستسلام، وتجري الاستعارةُ في هذا المعنى على قراءة ﴿ٱلسَّلَمَ﴾.

أمَّا القراءة بِفَتْحِ السِّينِ وَاللَّامِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ[2]؛ فبمعنى: الاستسلام وإلقاءِ المَقادةِ إلى إرادَةِ المسلمين[3]، وعلى هذه القراءة وهذا المعنى تجري الاستعارةُ، فقد عبّرَ عن الانقيادِ والاستسلام بـ(إلقاءِ السَّلَم)، وقيَّدَ الإلقاءَ بـ﴿إِلَيْكُمُ﴾، فشبَّهَ السَّلَمَ بالمحسوسِ الَّذي يُطْرَحُ عند المسلَّم له؛ لِيفيدَ نفيَ تملُّكِه له، ولِيكونَ بأمرِ المسلَّم له، لِأَنَّ مَنْ سلَّمَ شيئًا ألقاهُ، وطرحَه عندَ المسلَّم له[4]، فحذفَ المشبَّهَ به، وأبقى المشبَّهَ على طريقة الاستعارةِ المكنيَّة، بقرينةِ ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ﴾، وأفادتِ الاستعارةُ هنا: أنَّ مطلَقَ الاستسلام - بأيِّ طريقةٍ كانَت بالقول أو بالفعل - يقتضي الإيمانَ، فيتوجَّهُ النَّهيُ إلى نفيِ إيمانِه.

في السَّلَمِ وجهُ استعارةٍ يُفيدُ أنَّ مطلَقَ الاستسلام يقتضي الإيمانَ

انفرد ابن وردان بروايته عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدنيِّ في أحد وجهيْه أداءً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بفتح الميم الثَّانية من (مُؤمَن) على زنة اسم المفعول، مع إبدال الهمز السَّاكن في كلمته هذه واوًا في القراءة تخفيفًا، وهذه القراءة هي لبُّ لباب ما نحن بصدده، والمعنى: أنَّ الله ينهاهم أن يباعدوا بين مبْتَغي الأمان وبين مُبْتَغَاه، بل عليهم أن يُدْنُوهُ من

في فتح ميم (مؤمن) الثَّانية حثٌّ على العطف، والملاطفة، وتهدئة الرَّوع

(1) رضا، تفسير المنار: 5/282.
(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 236.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/70، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/31.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 3/327.

غايته، وأنْ يُهَدِّئوا روّعَه، ويُلقوا إليه ما يلتقط بسماعه أنفاسه، في حسٍّ إنسانيٍّ عاطف ملاطفٍ يشهد أنّ القرآن كتاب الإسلام قد أعلى شأن الحياة ووهبها لكلِّ حريص عليها، وانظر كيف وصاته بالمشركين في آيات كثر، منها هذا الَّذي نحن بصدده، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التَّوبة: 6]، ويقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التَّوبة: 7]

فما أعظمَهُ من هدًى ونور أريد للإنسانيَّة كلِّها وللبشريَّة جمعاء أن تنعم به، وأن تستروح ملتقطة أنفاسها اللّاهثة في ظلاله!

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِهِ: ﴿مُؤْمِنَا﴾:

أقـــلُّ وصـــفٍ للإيمان، وأدنى تحقُّقٍ له يُكتفَى بهِ

دلَّ مجيءُ الاسم نكرةً على أنَّ النَّفيَ يستغرقُ عمومَ الوصفِ بالإيمانِ، والمعنى: نفيُ أنْ يكونَ له أيُّ وصفٍ من أوصافِ الإيمانِ؛ وإنْ كانَ قليلًا، والمقصودُ أنَّه ما دامَ قدْ ألقى السَّلامَ على المؤمنينَ، فلا يَحِقُّ لهم نفْيُ الإيمانِ عنهُ، فيُقبَلُ منه هنا ما أظهرَهُ، ويُكتفَى به.

وجه التَّعبير عن الإيمان باسم الفاعل:

الإمـــســاكُ عن قتل المؤمن مع الـــقـــدرة عليه مـراقـبـةٌ لـلـه، وامتثالٌ لحكمه

دلالة اسم الفاعل على الاستقبال، تجعل قول القائل: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: تعدِّيًا بالنَّفي، يجاوز نفي الإيمان عن المقول له في الحال، إلى نفي ذلك عنه في الاقتبال، وذلك في طيِّه شبهة سوء الظّنِّ بالمقول له فيما بدر منه، كأن يُظَنُّ به قول ما قال تعوُّذًا ينطوي فيه الغدر والمخاتلة والخداع، فكان النَّهي عن مباشرة قتله على تلك الحال؛ موحيًا له بأن الكفَّ عنه، والإمساك عن قتله مع القدرة عليه مراقبةً للّه وامتثالًا لحكمه، كِفْلٌ بأن يُلقي في نفسه حبَّ اللّه، والإيقان بجدوى الاعتزاز به وأن يغريَه ذلك بإظهار ما استبطن من أمر إيمانه بإعلانه، وأن تكون تلك الحادثة بارقة شرح الصّدر ونبذ الكفر ولزوم الطُّهر.

إيثار التّعبيرِ بفعل الابتغاء:

في التّعبير ذمٌّ لما ظاهرُهُ غنيمةٌ، وحقيقتُه عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا

لَمَّا كانتْ كلمةُ (تبتغي) تدلُّ على الضَّالَّةِ المَبْغيَّةِ والحاجةِ المطلوبةِ[1]، وكانت صيغةُ ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تدلُّ على الاجتهادِ في الطَّلبِ أو المبالغةِ في معناه، فهي أليق بما نحن فيه إيجازًا ودلالة ووفاء بالمعنى؛ بسببِ مجيئِها على صيغةِ (افتَعَلَ)[2]، فصاروا بسبب فعلِهم كأنَّهم كانوا يبالغونَ في طَلَبِ من لا يَتَبيّنُ حالُه؛ لِحاجةٍ في أنفسِهم، وليس في سبيلِ اللّهِ، ولإفادةِ أنَّ الشَّيءَ المنفَّر عنه بنسبتهم إلى طلبه رغم كونه مذمومًا، شأنه كأنَّه كانَ ضالًّا عنهم، فألفوه، وحَصَلوا عليه رغبةً لأنفسِهم، فظاهرُهُ غنيمةٌ، وحقيقتُه عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا.

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿عَرَضَ﴾:

المعصيةُ تُحوِّلُ وصفَ المالِ من المحمودِ إلى المذمومِ

عبّر عن متاع الدُّنيا بالعَرَضِ، ولم يقلْ مثلا: (غنيمةً)؛ لِما في تركِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ من مخالفةٍ لأمرِ اللّهِ تعالى، فتحوّلَ وصفُ المالِ من الغنيمةِ المحمودةِ إلى عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا الزَّائلِ المذموم، كما أنَّ ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يدلُّ على حُطامِ الدُّنيا الفاني؛ لأنَّه مهما يكن زائل غير ثابت، فهو عارض لَا يدوم[3].

وجْهُ ذكرِ كلمةِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

الخروجُ إلى الجهادِ يناقضُ طلبَ عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا

ذكرَ كلمةَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ هنا، ولم يقلْ: (تبتغونَ عَرَضَ الدُّنيا)؛ لِمناسبةِ المقامِ، وهو التَّصريحُ بأنَّ الغايةَ من الإقدامِ على القتلِ من غيرِ تبيُّنٍ أو تثبُّتٍ هو التنعُّم بما هو زائلٌ في هذه الحياة الدُّنيا، وهو مناقضٌ للخروجِ إلى الجهادِ في سبيلِ اللّه، فكأنَّ ذكرَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تذكيرٌ بأنَّ الضَّربَ في سبيلِ اللّه لا يناسبُ ابتغاء الحياةِ الدنيا؛ لِأنَّهم معرَّضون في الجهادِ إلى الموتِ، فكيف، والمبتغى هنا عَرَضٌ من عروضها، وليس بها كلِّها؟

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بغى).
(2) الرضي، شرح الشافية: 1/110.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1809.

إشعارُ جملة الحالِ بعلَّةِ الإقدامِ على القتلِ:

تشعرُ جملة الحال: ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى تَرْكِ التَّثَبُّتِ أَوِ التَّبَيُّنِ هُوَ طَلَبُكُمْ عَرَضَ الدُّنْيَا، فهو الحامل لهم على القتل[1]، أي: غالبًا لا دائمًا، فكأنَّها جاءت في مقام التَّعليل، ومجيءُ جملةِ الحالِ مشعرة بالتَّعليلِ من لطائفِ القرآنِ الكريمِ.

الدَّاعِي إِلَى تَرْكِ التَّثَبُّتِ أَوِ التَّبَيُّنِ هُوَ طَلَبُ عَرَضِ الدُّنْيَا الزَّائل

وجهُ تضمينِ الكلامِ معنى التَّوبيخِ والإنْكارِ:

اقتضى هذا الإشعارُ أنْ يتضمّنَ الكلامُ معنى التَّوبيخِ على العجلةِ في القتلِ من غيرِ تبيُّنٍ من حالِ المقتولِ أو تثبُّتٍ منه، والمعنى على المبالغةِ في النَّهي والإنكارِ، أي: لا تَبتغُوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا مِنْ وراءِ القتلِ؛ لأنَّ اللّٰه عندهُ مغانمُ كثيرةٌ[2].

في معنى التَّوبيخ مبالغةٌ في النَّهي عن التَّعجُّل في القتل

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾:

لَمَّا كانَت الحالُ وقد قدَّمنا أنّها للتّعليل في معنى الإنكارِ والتَّوبيخِ، وهو خبرٌ يتضمَّنُ معنى النَّهي، بمعنى: لا تبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا؛ أتبعَهُ بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾؛ لِتكونَ الفاءُ سببيَّةً بمعنى: أنَّ ما بعدَها مترتِّبٌ على نهيٍ سبقَها؛ فتدلُّ الفاءُ على تعليلٍ لنهيٍ ضمنيٍّ أشعرتْ به جملةُ الحالِ، والتقديرُ: "لا تقتلوا النّاسَ لأجلِ المالِ والغنيمةِ"[3]؛ فعندَ اللّٰهِ مغانمُ متنوِّعةٌ كثيرةٌ، وفيه توجيه إلى أنّ من ترك شيئًا للّٰه في الحرام عوَّضه اللّٰه خيرًا منه في الحلال.

قتل المؤمن لأجل الغنيمة جحدٌ لما عند الله من مغانم كثيرة أنفع

بلاغةُ التَّقديم والتَّأخير في الآية:

قدّمَ الظرف (عند) على المغانم في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ والتَّخصيصِ، فالمغانمُ الكثيرةُ هي عندَ اللّٰهِ، وليستْ عندَ غيرِه، فيلزمُ امتثالُ أوامرِ اللّٰهِ والتَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ،

المغانمُ الكثيرةُ هي عندَ اللهِ وليست عندَ غيرِه

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/331.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.
(3) الباليساني، حسن البيان: 2/577.

وفي الكلام وعدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى للمؤمنين بالمغانم الكثيرةِ بِمَا يَأْتِي بِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَمِنْ حِلِّهِ دُونَ ارْتِكَابِ مَحْظُورٍ[1].

بديعُ التَّعبيرِ بصيغةِ المغانم:

جمع الغنيمة وتنكيرُها؛ لإفادة التَّكثيرِ والتَّفخيمِ والمبالغة

تدلُّ صيغةُ منتهى الجموعِ على المبالغةِ والنِّهايةِ في المغانم، وجاءت نكرةً لإفادةِ كثرةِ أنواعِها، ثُمَّ زادها مبالغةً بوصفِها بـ﴿كَثِيرَةٌ﴾ أي: كثيرةُ الأنواعِ وكثيرةُ العددِ وكثيرة البركة، ووردتْ بصيغةِ النَّكرةِ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّفخيم، ففي الوصفِ مبالغةٌ فوقَ مبالغةٍ؛ لِمَا عندَ اللَّهِ من مغانمَ كثيرةٍ لا تُحصَى.

علَّةُ إيثارِ ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

الاعتبارُ بتمثُّلِ الحالَةِ واستذكارها بتحديدِ الوقتِ

يدلُّ حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ على ابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ، ففيهِ إلماح إلى أنْ تعتبروا بحالكم وقت أن كنتم تتخفّون بإسلامكم كما يفعل بعضُ الآن؛ ليكونَ أدعى إلى تمثُّلِ الحالةِ وتذكُّرِها، فيقعَ الاعتبارُ بها، ولو لم يذكرْ ﴿مِّن﴾؛ لَدَلَّ على الزَّمنِ الَّذي قبلَ زمنِ التَّحدُّثِ مطلَقًا، فيضعفُ الاعتبارُ في مقامِ تذكُّرِ حدث مقصود ينبني عليه حكمٌ له شأنٌ عظيمٌ.

سرُّ تقديمِ خبرِ (كان):

التَّقديم لتأكيد المشابهة

تقديمُ خبرِ (كان) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾؛ للقَصْرِ المفيدِ تأكيدَ المشابهةِ بين طرفي التَّشبيه، وذلك إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتِّصافِه بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والفاءُ في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطفِ على ﴿كُنتُم﴾، أي: مثلَ ذلك الَّذي ألقى إليكم السَّلامَ، كنتم أنتم أيضًا في مبادئِ إسلامِكمْ لا يظهرُ منكم للنَّاسِ غيرُ ما ظهرَ منه لَكم منْ تحيَّةِ الإسلامِ ونحوِها، فَمَنَّ اللَّهُ عليكم بأنْ قَبِلَ منكم تلكَ المرتبةَ، وعَصَمَ بها دماءَكم وأموالَكم، ولم يأمُرْ بالتَّفحُّصِ عن سرائرِكُمْ[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/340.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/218.

نكتةُ إيثارِ ﴿فَمَنَّ﴾ دونَ (فأَنْعَمَ):

المِنَّةُ تكونُ عظيمةً وغيرَ مقطوعةٍ ولا منقوصةٍ

لقد كانَ إظهارُ الإسلامِ بقوَّةٍ - بعدَ التَّخفّي والخوفِ والرَّهبةِ - من أجَلِّ النِّعَمِ ومِنْ صنائعِ الإحسانِ العظيمةِ الَّتي أعطاها اللهُ تَفَضُّلًا منه على المؤمنين، بحيثُ قطعَ حاجتَهم، وغيّرَ حالَهم إلى الأَحسنِ، فالمِنَّةُ تكونُ غيرَ مقطوعةٍ ولا منقوصةٍ[1]، وتكون فيما يُستكثَر ويُستَعظم، كما يُشعِرُ به معنى لفظِ (مَنَّ)، وكان المقامُ مقامَ تعدادِ نِعَمِ اللهِ على المؤمنين؛ ليَقعَ امتثالُ المؤمنين لأمرِ اللهِ؛ آثرَ ذكرَ (مَنَّ) دونَ (أَنْعمَ)، وفي الآيةِ إشعارٌ بإعجازِ القرآنِ؛ إذْ في الكلامِ بشارةٌ للمؤمنينَ ببقاءِ ظهورِ الإسلامِ وانتهاءِ أمرِ التَّخفّي بهِ؛ لأنَّ المِنَّةَ تأتي في مقامِ دوامِ النِّعمةِ الثَّقيلةِ العظيمةِ.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ (على):

علوُّ مِنَنِ الله تعالى تقتضي الشُّكرَ بالامتثال

أفادَ حرفُ الاستعلاءِ (على) في قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ استيعابَ مِنَنِ اللهِ الثَّقيلة على المؤمنين وَعُلُوَّها، مِمَّا يقتضي شكرَها بالامتثالِ لأمرِ اللهِ.

تكرار ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ بينَ التَّأكيدِ والتَّأسيس:

تعظيمُ شأنِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ في العمومِ والخصوصِ

ذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الثَّانيةَ تأكيدٌ للمبالغةِ في التَّحذيرِ عَنْ ذَلكَ الْفعْلِ ولتعظيمِ شأنِ التَّبيُّنِ وترتيبِ الحكمِ على ما ذُكِرَ مِنْ حالِهم[2].

وذهب آخرون إلى أنَّ الثَّانيةَ تأسيسٌ، وليس تأكيدًا؛ لاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِ التَّبَيُّنِ، فالأولى متعلِّقة بالضَّرب في سبيل الله، والمعنى: فَتَبَيَّنُوا أَمْرَ مَنْ تُقْدِمُونَ عَلَى قَتْلِه، والثَّانية متعلَّقة بتذكُّر نعمة الله، والمعنى: فَتَبَيَّنُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ[3].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/519.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/191، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/91.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/34.

والظَّاهرُ أنَّ الثَّانيةَ غيرُ الأولى، فتكونُ تأسيسًا، ولكنْ مِنْ وجهٍ آخرَ غير الَّذي ذُكرَ، أي: يكونُ الأمرُ بالتَّبيُّنِ أوَّلًا عامًّا ومُمَهِّدًا لما بعدَه، وَلاسيَّما أنَّه مرتَّبٌ على شرطٍ عامٍّ متوقَّعٍ مقيَّدٍ بالظَّرفِ، والمعنى: في وقتِ السَّيرِ في سبيلِ اللّهِ تبيَّنوا، أي: تبيَّنوا المؤمنَ منَ الكافرِ المحاربِ من المعاهَدِ وغيره مِن كلِّ ما يقتضي التَّبيُّنَ في وقت السّيرِ في الحروبِ، وتعاملوا مع كلِّ ظرفٍ بما يقتضيه، ثُمَّ عطفَ عليه قولَهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، أي: قدْ يحدثُ عندَ السَّيرِ في سبيلِ اللّهِ أنْ تروا مَنْ يُلقِي إليكمُ السَّلامَ، فإذا رأيتموه؛ فلا تقولوا لَهُ: لستَ مؤمنًا، فجاءَ بالنَّهي عن أمرٍ خاصٍّ بعدَ الأمرِ العامِّ بقوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، ثمَّ ذكرَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الثَّانية مقيَّدةً بالاستيضاح عن أمرِ مَنْ تُقدمونَ على قتلِه مِمَّنْ يُخفِي الإسلامَ خوفًا من قومِه، فيكونُ الأمرُ بالثَّانيةِ أدعى إلى الامتثالِ؛ إذ ترتَّب على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، ومعَ هذا فلا تخلو الثَّانيةُ مِنْ إشعارٍ بتأكيدٍ للأولى؛ لِعمومِ الأولى وخُصوصِ الثَّانيةِ، ولتعظيمِ شأنِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ في العمومِ والخصوصِ، فبينهما أمر مشترك، وكلاهما ينفرد بتبيُّنٍ خاصٍّ[1].

بلاغةُ جملةِ التَّذييلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

في التَّذييل تحذيرٌ من إضمارِ خلافِ الظَّاهرِ

جاءت جملةُ التَّذييلِ تعليلًا لِمَا تقدَّمها[2]؛ لاقترانِها بـ﴿إِنَّ﴾ الَّتي تقوم مقامَ التَّعليل هنا، وكأنَّ المعنى: إنَّما أوجبَ عليكم ما أوجبَهُ؛ لِأنَّ اللّه كانَ ولايزالُ بِمَا تعملونَ خبيرًا، فحذّرَ عن إضمارِ خلافِ الإظهارِ[3].

سرُّ تقديم معمول خبر ﴿كَانَ﴾:

جميع أعمال المؤمن ستعرض على الله تعالى خفيّها وظاهرها، والفيصل ميزان الشَّريعة

قدّمَ معمولَ خبرِ﴿كَانَ﴾ عليهِ؛ ليشعرهم باستخراج أعمالهم، وتقديمها بين أيديهم لمساءلتهم عليها، وليعتنوا بمراقبتها وزنتها بميزان الشَّريعة وضوابطها، ولإفادتهم أنَّها هي لا الذَّوات موضع نظر اللّه ومراقبته ومجازاته[4]، وللدَّلالة على أنَّهم لا يؤاخذون على غير ما

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/219.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/477.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.

صدر عنهم أنفسهم، فعليهم تزكيته بالطَّهارة ومكارم الأخلاق والإخلاص، وتخليته من الرِّياء والسُّمعة؛ لِأنَّ الكلامَ في أعمالِ المؤمنين الخَفيَّةِ والظَّاهرةِ، وفي هذهِ الجملةِ تَحْذِيرٌ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ، أَيِ: احْفَظُوا أنفسَكم، وجنِّبوها الزَّللَ الموبِقَ لَكم[1]، ففي الجملةِ معنى العموم من حيث يؤول المصدر المؤوَّل إلى صريح معناه (عملكم)، وهو عامٌّ لم يُنْظَرْ فيه إلى خصوص موقف ما أُمروا فيه بالتَّبيُّن والتَّثبُّت؛ لِتجريَ مُجرى المَثَلِ في التَّحذيرِ والوعيدِ.

علَّةُ تضمين الجملةِ التَّذييليَّةِ للفعل ﴿كَانَ﴾:

تـذكـير المـؤمـن وتـنـبـيـهُـهُ على دوامِ مراقبةِ اللهِ له

وردتْ مثلُ هذهِ الجملةِ في آياتٍ أخرى مِنْ غيرِ (كانَ)، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]، وجاء في هذهِ الآيةِ بتضمينِ ﴿كَانَ﴾، وكلُّها تدلُّ على اتِّصافِ اللهِ بكونِه خبيرًا، وهذهِ الصِّفةُ أزليَّةٌ قديمةٌ، ولكنَّ تضمينَ الكلامِ الفعلَ ﴿كَانَ﴾ فيه فائدةٌ يقتضيها المقامُ، وهيَ التَّنبيهُ على استمرارِ لَحظِ المُؤمنِ وصفَ اللهِ بأنَّه خبيرٌ بِمَا تعملونَ، ودوامِ مراقبته ﷻ بسببِ دلالةِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ الدَّالِّ على الحدثِ الماضي المستمرِّ، كي يرقبوا وصفَه تعالى، ويمتثلوا ما يأمر به اللهُ تعالى وما ينهى عنه، ونكتةٌ أخرى تناسبُ مجيءَ ﴿كَانَ﴾ هنا: وهي أنَّه لَمَّا كانَ فعلُهم قد مَضَى، وانقطَعَ؛ جاءَ بـ﴿كَانَ﴾ ليفيدَ أنَّ ذلك الحدثَ كانَ اللهُ به خبيرًا، فناسَبَ مجيءُ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ مقامَ فعلهم الماضي، ويبقى دوامُ اتِّصافِ اللهِ بكونِه ﴿خَبِيرًا﴾ بقرينةِ المقامِ؛ لأنَّ أوصافَ اللهِ تعالى ثابتةٌ لا تتغيَّرُ، ولا تتبدَّلُ.

وصف اللهُ بأنَّه ﴿كَانَ﴾، ولا يزال الآن على ما عليه كان، خبيرًا سبحانه بالعمل، والخبرة تقضي أن يجمع إليه كلَّ ما تعلَّق به من نيَّة ونوازع وكيفيَّة ودوافع وملابسات ودواعٍ ومقتضيات وما صحب ذلك من أقوال وأحوال وأموال، ممَّا إذا استصحبه المؤمن؛ كان كفلًا باستقامته حتّى يقام على الرَّبَّانيَّة علمًا وعملًا ومراقبة لله كأنَّه يراه، فتكون حياته زاكية راقية، هادية راضية.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/341.

سرُّ اقتران وصف الخبير بأعمال المؤمنين:

إنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء

اقترن وصف الخبير بأعمال المؤمنين المخاطبين بذلك الخطاب لبيان مراقبة الله تعالى الدَّائمة لأعمالهم، دقيقها وجليلها، ولأحوال نفوسهم خفيِّها ومعلنها، وأنَّه لا تخفى عليه خافية في السَّماء ولا في الأرض[1].

بلاغةُ التَّغليبِ في قولِه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

مخاطبةُ الخاصِّ أكثر تأثيرًا من مخاطبةِ العامِّ

جاءَ بتاءِ الخِطابِ في قولِه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على التّغليبِ، فإنَّ الله كانَ بما تعملون خبيرًا، أي: أنتم - أيُّها المؤمنونَ - وجميعُ المكلَّفينَ وغيرُهم[2]، وجاء بطريقةِ الخطابِ للمؤمنين بقرينة المقام، وليكونَ أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ المؤمنينَ المُخاطبينَ، فمخاطبةُ الخاصِّ أقوى من مخاطبة العامِّ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، وليكون ذلك أذكر للحساب، فإنّ من كُلِّف؛ سُئِل.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.
(2) السَّكّاكي، مفتاح العلوم: 242.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»